فصول ملخصة فى الفلسفة الالمانية

٢٣ – تطور الحركة الفلسفية فى المانيا

النامية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

الرجل ذو الضمير الفاسد يحس فى نفسه حاجة مريضة للتألم ، وهو لا يشعر بأن هذه الحاجة تبعثها علة حقيقية هى وليدة هذا الضغط القاسى على إرادة قوته ، وإنما يدرك فقط أنه متعاقد مع الألوهية على دين لا يمكن أداؤه . ومن الحق أن يبدو له أن هذا الدين شديد تهون فى سبيله الآلام . فهو يحتمل الشقاء ليُهدئ غيظ دائنه العنيف ، وليكفر عن خطيئته . وها هو ذا الآن يلتمس العذاب يتذوقه ألواناً ليفى بدين يزعم أن لا نهاية له . يحمل الألم ولا غاية له إلا الألم ليطفئ فى نفسه رغبة التكفير عن ذنبه . وهيهات أن تشبع هذه الرغبة أو تطفأ !

فكرة الخطيئة بعثت مرة ثانيـة ، وأصبحت الآلة التى يتوعد بها الكاهن ، وبها يُسيطر على الأرواح ، وبها انقادت له جموع الأشقياء ووضع يده على التاج المتألقة التى أبصرها فى الطريق . مضى قُدُماً الى أولئك المتحطين العاملين بشقاء يجهلون علته ، يتحرون عن العلة أو الواحد المسئول عن انحطاطهم الغارقين فيـه . فيوحى الى هؤلاء بأنهم هم أنفسهم كانوا سبب شقائهم الحقيق ، وأنهم ينبغى لهم أن ينظروا الى هذه الآلام كتضحية صغيرة عن خطيئاتهم التى اجترحوها ، فليتقبلوها — بطرب — كامتحان أراده الله ، فآمنوا به وقبلوا بهذا الحل منه ، وتلقّحوا برضاً بهذه الفكرة السمعة عن الايمان بالخطيئة . وفى أوروبا اليوم مذهب يضم هؤلاء الخاطئين التوابين الذين يعشون بأجساد مريضة وأعصاب ساكنة ونفوس ذاهلة ، فرائس لليأس والهذيان . جوعهم دائم للعذاب ، تستولى عليهم فكرة الخطيئة والهلاك الأبدى

وفى النهاية يجد نيتشه أن التعاليم المسيحية كديانة وكمثل أعلى ، لا تقود إلا إلى العدمية « nihilisme » . يجد أنها خلقت عالماً مفعماً بالأوهام المجردة ، وتخيلت عللاً خيالية وأعمالاً خيالية ، وروابط بين الأكوان خيالية . أسست علماً طبيعياً وهمياً مؤسساً على انكار الأسباب الطبيعية والعلاقات الطبيعية بين الأشياء ، وأسست علم نفس خيالى يرتكز على تفسير خاطىء للحوادث الطبيعية وعلى فلسفة خيالية ، وبينا كان الرجل المسيحى دائباً فى بناء وجود خيالى كان يهدم الوجود الحقيق ، يقاوم الطبيعة « أصل كل بلاء » فى سبيل الآلـه « أصل كل خير وهناء » ، فولدت الأوهام المسيحية من بغض الحقيقة ، فهى نتيجة انسانية منحطة ، تربو فيها كمية الشقاء على كمية الفرح ، انسانية تعبة ساءة ، متألمة ، تميل إلى التشاؤم وعدم الحياة ، ولا تجد راحتها إلا فى أحضان العدم

— ٤ —

إن عمل التاريخ الأوروبى هو ظفر شريعة العبيد على شريعة الأسياد ، لأنه قبل تلك الشريعة وعمل على اعتناقها وكفر بهذه الشريعة . . . وإنها لمعركة لاتزال مشبوبة محتدمة عشرين قرناً بين « روما » وارثة الحضارة اليونانية ومثلها الأعلى الأرستقراطى ،

تهت عن غايتى ولـكن تيهى ... ينبت الخصب كلما حلّ قفرا
أنا برق فى قوتى والتهابى ... فى وميض أحيا وأدفن عمرا
أنا ليل يغنى اشتعالاً وحباً ... لتوشى دماؤه الحمر فجرا
أنا زهر أطارت الريح أورا ... فى فأقمت واسع الجو عطرا
أعطشتنى الرغاب ... فشربت النجوم
وحـدانى الشباب ... فامتطيت الغيـوم
من ذرى هذه السحائب ارمى ... فوق هام الورى رفيع ازدرائى
قدما فى السماء أركز جذلا ... ن وأخرى على جبين الفضاء
لم يعد لى فى الأرض منزل حرّ ... واسعٌ مطلبى وعالٍ إبائى
أحرقت بيتى الصواعق لـكن ... غسلت لى قلبى بذوب الضياء
مزقت ثوبىَ الرياح ولـكن ... نسجت من دم الشموس ردائى
إعصـفى يا رياح ! ... واهزئى بالسماء
من يكن ذا جناح ... هل يهاب الفضـاء

الذى هو أقوى مثل وأسمى مثل تحت الشمس ، واليهودية موطن البغض ومنزل الروح «الكهنوتى» ، انتصرت اليهودية والنهضة الحديثة التى شبت فى أوروبا قامت فى وجهها عثرات وعقبات ، كثورة «لوثر» والبروتستانت ، وكثورة الباستيل فى فرنسا ، وانهزام نابليون ، هذه نائبات تتالت خالت بين بلوغ النهضة غايتها ، فآلت إلى انتصار شريعة العبيد ، فأوروبا الآن غارقة فى انحطاط عميق ، يقضى على ما تبقى فى عروقها من حياة ، حتى ليخشى أن يتقهقر النوع الانسانى إلى الوراء ، فلا يورث بعد اليوم إلا صوراً من الخزى والعار

هذه هى شريعة العبيد التى تسيطر على العالم تحت اسم « ديانة الألم الانسانى » ، فلنفصل الآن هذه الديانة وماتنطوى عليه

إن تحليلنا لعاطفة الشفقة التى يتبجح بها اليوم معلمو الجيل الحاضر يثبت لنا أن هذه العاطفة ليست من العدل والجمال على المثال الذى يرون . إن عاطفة الشفقة — فى الحقيقة — يتولد منها سرور أنانى . إذ نحن نصنع مع الآخرين الخير كما نصنع الشر . غايتنا من ذلك أن نظهر شعورنا بقوتنا ، ونخضعهم لسلطتنا . أما الرجل القوى الشريف فهو يفتش عن كفء له ليبادله النضال ويحمى هامته بأزاء قوته ، وتراه يحتقر الفريسة الذليلة السهل انقيادها ، وتراه ينحرف عن الخصوم الذين لا يجد فيهم أكفاءه وأمثاله . أما الضعيف فهو يميل إلى الظفر السهل ، والفريسة الخانعة ، وهل كان ضعيف أو شقى يوماً مهيباً ؟ وإن الانسان بطبيعته وإرادته يجنح إلى إحسان لا إلى شقاء

إن الشفقة هى فضيلة الأنفس المتوسطة ، تتدرب عليها دون وازع ولا مانع ، حتى إذا نزلت هذه الشفقة ساحة النبيل أصبحت علامة الانحطاط ، وذهاب الكرامة ، وخساسة الأصل . إن النبيل يكتم آلامه وهمومه ولا يبوح بها . يصرف عن نفسه الارادة الحسنة كما يصرف الارادة السيئة ، والانسان المتألم القبيح قد يكون على حق فى كرهه للشهود الذين يبوحون بسر قاقته وقبحه وتعاسته . هؤلاء الشهود الذين لا يستحون من أن ينظروا إلى ما كان ينبغى له أن يظل خفياً عن العيون ، فيحملون هذا الشقى منة شفقة ما طلبها وما تمناها

إن الشفقة ليست بعاطفة مفيدة فحسب ، بل هى عاطفة منحطة أيضاً . لنتصور أن ديانة الألم قد انتشرت بين الناس فما هى النتيجة ؟ إن كمية الألم تزيد بدلاً من أن تنقص ، ويصبح الانسان مجبراً على حمل آلامه الخاصة وجزء من آلام الغير ، حملاً على حمل ، وبهذا تضعف الشفقة من حيوية الحياة ، وتجعل من الألم داء سارياً . ناهيك بأن ديانة الشفقة تضادُّ المذهب الطبيعى السائد حكمه فى الأحياء ، وهو بقاء الأصلح والأنسب الذى يقضى بفناء الكائنات التى لا يصلح تركيبها للحياة ، وقد أتاها حظ بخروجها ظافرة من معركة الحياة ، وكل ديانة ترمى إلى الشفقة هى ديانة تعمل على وقاية العناصر المنحطة ، وعملها هذا هو ما يسوق إليها الفوز فى كل جيل ، لأن الضعفاء والمرضى هم فى الحقيقة الفريق الغالب ، بينما أن الانسان الخالص الصافى من كل شائبة هو نادرة من نوادر الوجود ؛ وقد ثبت فى كل الأنواع الحية العالية أن الأغلبية فيها هى كائنات منحطة التركيب ، سيئة الخلق ، مستسلمة للألم ، والانسان لا استثناء له من هذا الحكم . والانسان — بالنظر إلى الحيوانات — هو سلالة عالية راقية ، قابلة للتطور ، وهو لما يبلغ آخر مرحلة من مراحل التطور فى الكمال ، وهو لما يزل عرضة للحوادث التى تؤثر فيه وتبدل منه . كما أن معدل الانحطاط فى النوع الانسانى هو أبرز وأكثر منه فى سائر الأنواع . وديانة الشفقة تغدو عاملاً كبيراً فى الابقاء على فريق كبير من الأحياء لا فائدة منه ، لأن انتخاب النوع لا يرى غاية له إلا الفناء . هى تحفظ مظاهر الفاقة والبؤس . فتجعل الوجود أكثر قبحاً ، والحياة أكثر ميلاً إلى العدم . إن هذه الديانة هى جزء من العدمية . إنها مهددة للوجود وللنماذج العليا من إنسان الوجود . فان مرأى البؤس والألم والانحطاط والقبح يدعو الرائى إلى رجاء العدم ، إما بعامل اليأس من هذا المرأى أو بعامل الشفقة ، حتى ليغدو مذهب الشفقة مرضاً شديداً يقضى على طبيعة كريمة ، ويقتل منها قوة نضالها ودفاعها ، هذا المرض الدائب على تذليل القرية الأوروبية ، وتقييد اصطفاء الأنواع السامية ، والحيلولة بين الانسان والسوبرمان

(يتبع)

خليل الهنداوى